الأندلس في المغرب

عيسى الناعوري

في عام ١٩٦٧ ، وفي مؤتمر الدراسات الاسبانية / الاسلامية في قرطبة ، التقيتُ بالاستاذ المؤرخ والاديب المغربي عبد الله كنّون ، وكان بيننا حديث على الاندلس ، وعلى روائع الفنون المعمارية والزخرفية فيه . وكنت اظن ان هذه الفنون قد جمدت على ما خلّفه عرب الاندلس في اسبانيا . غير ان الاستاذ كنّون اكّد لي ان هذه الفنون لم تَجمُد ، بل هي تعيش الآن وتتطوّر في المغرب بأزهى واحدث مما هو في الاندلس . ودهشتُ لذلك ، وحَسِبتُ انه من قبيل المفاخرة الوطنية .

ثم اتيح لي أن ازور المغرب عام ١٩٧٤ بحثًا عن اثر الفنون الاندلسية هناك : من طراز معماري ، ومن زخرفة ونقش ، ومن فناء وموسيقى ورقص . وقد قضيتُ في تلك الزيارة واحدًا وعشرين يوما ، وتجوّلتُ في المدن الرئيسية : من طنجة غربًا ، الى وَجْدة شرقًا ، والى مراكش جنوبًا ، وبينهما زرتُ كذلك الرباط ، ومكناس ، وفاس ، وتطوان . وفي كل مدينة قضيتُ يومين او اكثر ، ازور القصور ، والمساجد ، والزوايا ، والمقابر ، والمدارس القديمة ، والاسوار والقصبات . وذهلتُ فعلا وانا اعيش جوَّ الاندلس من جديد ، ولكن بشكل احدث واكثر تطوّرًا واشدّ روعة .

كنت قبل زيارة المغرب أحسَبُ ان فنون الزخرفة الاندلسيّة قد دخلت الى الاندلس من المغرب ، مع الفتح الاسلامي الذي دخل من المغرب ، ولكنني تيقّنتُ بعد زيارة المغرب من ان هذه الفنون الدهشة انما دخلت الى الاندلس مع الأمويين ، الذين حملوها معهم من دمشق ، بعد أن كانت دمشق قد اخذتها عن القاشاني الفارسي ، ومن

البيزنطيين ، وطبعتها بطابَـع دمشقيّ خاص . ثـم تطوَّرَتْ في إسبانيا مع الأيام ، ولـم تدخل الى المغرب الا في عهـد المرابطين ، في القرن الحادي عشر الميـلادي ، الخامس الهجري ، بعـد ان ضَمَّ يوسف بـن تاشفين الاندلس الـى المغرب ، فاصبح البَلَدان بلـدًا واحدًا . وبذلك احتضن المغربُ الفنـونَ الاندلسيَّة منذ ذلك الحـين . وحين خرج العرب من الاندلس في القـرن الخامس عشر الميلادي هاربين الى بُلدان المغرب ، حملوا معهم فنونهـم ، وظلّوا يمارسونها هناك . ومـذ ذاك راحت تتطوَّر مـع الزمن الى يومنا هـذا .

والواقع ان الذي يريـد دراسة الفنون الاندلسيـة كلها ، ومنها الغناء ، والرقص ، والموسيقى ، لا بُـدَّ له من زيارة المغـرب ، والتجوّل في مختلف مُدنـه ؛ فالاندلس تعيش هنـاك باجمل ما في فنونهـا الرفيعـة الخالـدة .

وفي مـا يلي أُدَوِّن ما شاهدتُه وأَعجِبْتُ بـه في عدد من اهمّ المـدن المغربيـة مع شيء مما لا بـدّ منه من الربط التاريخي :

— ١ —
سَبْتَـة وطَنجـة

في الزاوية الشمالية الغربية من المملكة المغربية ومن القارة الافريقية ، وعلى شاطيء البحر المحيط والبحر المتوسط معا ، تقوم مدينة طنجة ، وعلى مسافة قريبة منها الى الشرق تقع مدينة سَبْتَة ايضا . وبين المدينتين العريقتين ينتصب شامخًا جبل موسى — نسبة الى موسى بن نصير — ويقابله على العُدْوة الاسبانية ، شامخًا متغطرسا ، جبل طارق . وكان هذان الجبلان والجبالُ العالية المتقابلة بينهما ، ومن حولهما ، تُدعى باسم (اعمدة هرقل) . وهي تتقابل متمرِّدَةً على جانبَي ما كان يُدعى مِن قَبْلُ (بحر الزقاق) او (بحر الظلام) ، ويُدعَى اليوم (مضيق جبل طارق) . وانما كانت تسميته بالزقاق او المجاز لضيقه ، فهو ضَيِّقٌ صغير ، لا تزيد ابعدُ مسافة فيه بين العدوتين عن ثلاثة عشر كيلو مترا .

اما تسمية الجبال المتقابلة الجبّارة باسم (اعمدة هرقل) فلها اسطورة قديمة، تقول إنَّ الارض كانت مُتّصلة بين المغرب واسبانيا ، وكانت تَفصِل بين مياه الاطلنطي والمتوسّط . ثم تَزَوَّجَ هرقل ، وجاء بزوجته الى طنجة . ولئلاّ يتمكّن احدٌ من الوصول اليهما وسَلْبه اياها ، شَقَّ الارض بين القارّتين ، وانشا بينهما الزقاق المائي ، واملأ المساء بالماء ، واقام الجبال الشاهقة حارسة على طرفي الماء ، فكانت هذه الجبالُ الماردة باسم (اعمدة هرقل) .

وفي طنجة مغارة هائلة على البحر تُدعى (مغارة هرقل) حفرتها امواجُ البحر القويّة التي ظلّت تضرب اطراف الجبال قرونا لا تحصر لها .

ويقف المرء على شاطيء طنجة وسبتة ، فيرى البواخر والقوارب تَمخَر البحر غاديةً رائحة بين هاتين المدينتين ومُدُن (قادس ، ومالقة ، والجزيرة الخضراء ، وجبل طارق ، ومالقة) على العُدْوة الاسبانية . وحين يقف على سفح جبل موسى ، بين سبتة وطنجة ، وينظر الى

الشمال عبر بحر الزقاق ، يُروعُه شموخ صخرة جبل طارق ، كأنما انشقَّ عنها البحر ، فتمرَّدت شامخةً فوق تيجانِ الغيوم المتصاعدة من البحر .

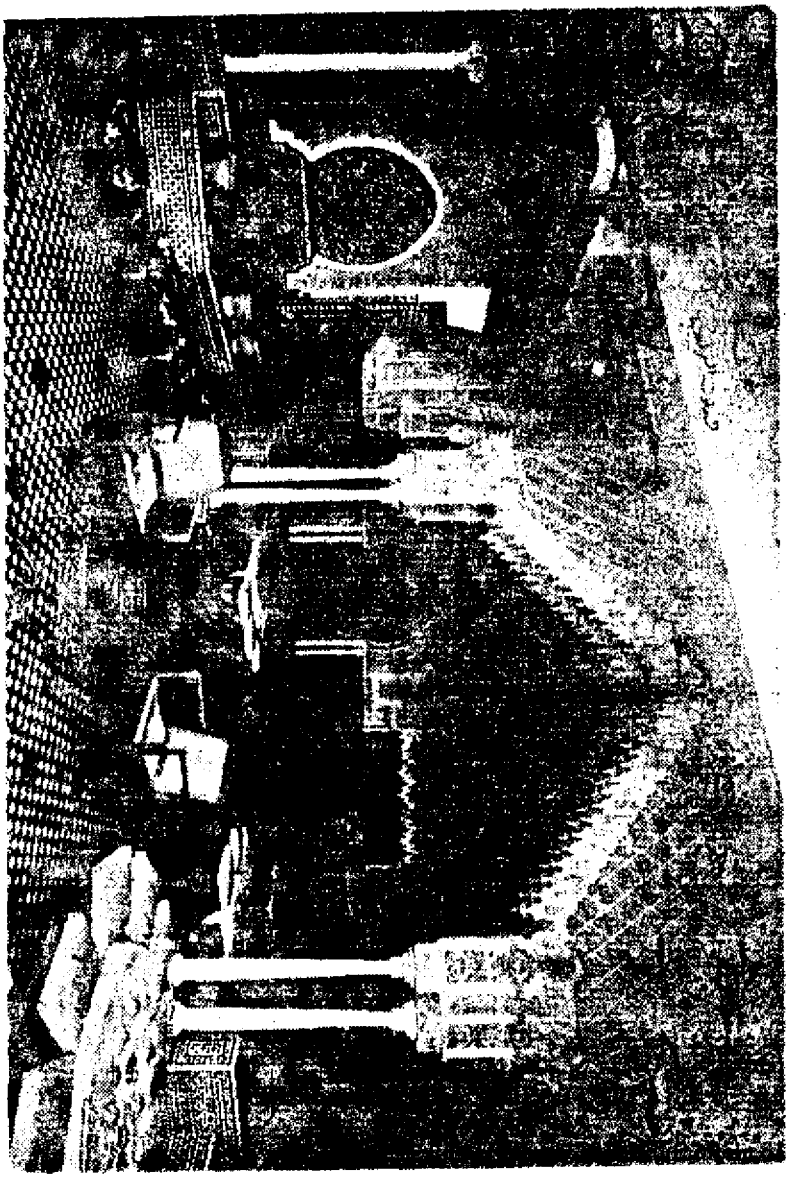

داخل قلعة الريف في طنجة

من هذه البقعة انطلقت جيوش الفتح العربي الاسلامي لفتح بلاد اسبانيا ، مبتدئةً عام ٩١ هـ ، ٧٠٩ م. وكانت هذه البقعة قبل الفتح الاسلامي للمغرب وخلال مُدَّةٍ من بدايته ، ذاتُ صلة متينة باسبانيا ، فقد كانت سبتة في عهد عقبة بن نافع ، ثم موسى بن

نصير من بعده ، في ايدي الاسبان ، وكان يحكمها بوليان ، الذي تعاون مع العرب على غزو اسبانيا لانقاذها من حكم عَدُوّه لذريق ، ومهّدَ لهم السبيل لفتحها ؛ وسبتةُ اليوم يحكمها الاسبان ، وكانوا الى عام ١٩٥٦ يحكمون الشمال المغربيّ كلّه ، وجزءًا من الشاطىء الغربي ، في حين كان الفرنسيون يحكمون بقيّة المغرب .

وظلّت سبتة وطنجة مَعْبَرًا طبيعيًّا بين المغرب والاندلس ، مثلما هما اليوم المَعْبَرُ بين البلدين : منهما عَبَرت سرايا طريف بن مالك ، للاستكشاف أولا ، عام ٩١ هـ. وعادت بالغنائم الوفيرة ، وببشائر سهولة الفتح . ثم عَبَرت بعدها جيوش طارق بن زياد سنة ٩٢ هـ. وتوغّلت في الجنوب الاسباني والغرب ؛ ثم تلتها جيوش موسى بن نصير سنة ٩٣ هـ. لاستكمال فتح اسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا .

ومن هذه البقعة أيضا كان الأمويّون يدخلون احيانا من الاندلس الى المغرب ، لمنع المغاربة من التدخّل في شؤون الأندلس . ثُمّ من هذه البقعة عينها دخَلَتْ فيما بعد جيوش المرابطين ، بقيادة يوسف بن تاشفين ، مَرّتَين : مرةً لانقاذ إمارات الطوائف من غارات الجيوش الاسبانية ، والمرّةَ الثانية لاحتلال الاندلس برمّتها وضَمّها الى المغرب . ومن هناك عادت الصلة التامّةُ بين المغرب والأندلس ، واصبحت هذه جُزءًا من المغرب ، ودخَلَت فنونُ الاندلس الى المغرب ، واتّصلَت الحضارة بين البلدين فصارت واحدة . واستفساد المغرب من ذلك فائدة عظيمة ، فقد كانت الأندلس متقدّمةً عليه من حيث العلم والثقافة ، وكان هو متقدّمًا عليها في القوة والسلاح ، « فكان هو يبذل للأندلس حمايته — كما يقول الاستاذ عبد الله كنّون في الجزء الاول من كتابه (النبوغ المغربي) — والاندلس تبذل له ثقافتها ومعارفها » (١) . وحين استولى يوسف بن تاشفين على الاندلس ، حمل ملكَ إشبيلية ، المعتمدَ بن عبّاد ، اسيرا مكبّلاً بالقيود الى طنجة ، ومنها الى فاس ، ثم الى أغمات — في الجنوب المغربي ، قرب مراكش — حيث مات سجينا ذليلا .

---

(١) النبوغ المغربي ، لعبد الله كنون ، ص ٧١ ، الجزء الاول — الطبعة الثانية .

لقد تأثرت طنجة ، مثلما تأثر المغرب كلّه ، بحضارة الاندلس ، وظلّ هذا الاثر الى يومنا هذا بارزا في العناية البالغة بالهندسة المعمارية ، والزخارف والنقوش الاندلسية ، والمُقَرْبَصات الرائعة البارزة في الجبص وفي الخشب — والمقربصات تعني (النقوش المجسّمة النافرة) وهي ماخوذة من الكلمة اللاتينية (CORPUS) التي تُعني (الجسم) ؛ ويُخطئ من يدعوها (المقرنسات) او (المقرنصات) ، فهي كلّها مُجسّمات نافرة .

وتعتمد الزخارف الاندلسية على قطع الزِّلّيج الخزفية الصغيرة ، ذات الالوان الجميلة الزاهية ، ولا سيما اللون الازرق واللون الاخضر ، وذات الاشكال البارعة الصناعة ، كاوراق الشجر حينًا ، او باشكال مربّعة او مثلّثة احيانا اخرى . وهي تُلْصَق إلصاقًا على الجدران ، ويُصْنَع منها صُوَرٌ واشكالٌ فنّية غاية في الجمال والرهافة والدقّة . وقد تُغطّى بها الجدران بأكملها ، او قد يُغطّى جزءٌ من الجدران الى مُستوًى معين .

وحين تَجتمع هذه الزخارف الخزفيّة الى المُقَرْبَصات البارزة في السقوف الجبصيّة ، او في الخشب ، ورفوف الابواب الدقيقة الصناعة ، تبدو فتنةً للنظر وبَهجةً للقلب .

هذا الطراز من الزخارف الزِّلّيجية والمقربصات الجميلة ما يزال الاسبانُ الى اليوم يحافظون عليه في متاحفهم ، وقصورهم ، وبيوتهم ؛ غير ان الحفاظ عليه في المغرب اشدُّ واعظم ، واكثرُ اتّساعا : فقصورُ المغرب كلّها ، ومساجدُه ، وفنادقه ، والكثيرُ من بيوته ، هي قطع روائع من الفنّ الاندلسي الساحر .

في طنجة ذهبتُ لزيارة الصديق عبد الله كنّون في منزله في القصبة — وهي مدينة طنجة التاريخية القديمة — فراعني ما شاهدتُ في المنزل من جمال النقوش والزخارف الأندلسية : من مدخل الدار ، الى بَهْوها السفلي ، الى السُّلّم الصاعدة الى الطابق الثاني ، الى ما رايته من غرف المنزل ، وطراز اثاثها . كلُّ شيء فيه اندلسي ،

حتى طراز الفـــراش ، والستائر ، والمقاعـــد الممدودة على الارض ، او المرتفعة علـــى مساطب مفروشـــة .

ومثل منزل عبد اللـــه كنّون ، بل اكثر زخرفة ، كـــان كذلك الفندق المعروف باســـم (فندق الريف) ، ففي قاعاته آيـــاتٌ باهراتٌ من هذه النقوش والزخـــارف الاندلسية .

وتنتقل من هنـــاك لتتجوَّلَ في (القصبة) المطلّـــةِ على البحر ، والمحاطةِ بالاســـوار العالية ، فتتخيَّلُ انك في احـــدى قصبات الاندلس ؛ والقصبةُ كانت مِن قبلُ مَقـــرَّ الحاكم ، وفيها دوائر الدولـــة ، وثكنات الجيش . وفي طنجة مـــا تزال القصبة يبدو عليها القـــدم ، في البيوت ، والشوارع ، الا مـــن بعض الأبنية الحديثة التي تكـــاد لا تبدو فيها . واسوارُها شبيهة باســـوارٍ كثيرة ما تزالُ قائمة في العديد من المـــدن الاندلسية . الطراز واحـــد ، والنتوآت المدبَّبَة في اعلـــى الاسوار والأبراج واحدة . ولا عجب فـــي ذلك ، فقد تعاقب على حُكْـــم الاندلس من المغاربة — من القـــرن الحادي عشر الميلادي الـــى اواخر القرن الخامس عشر — المرابطون ، والموحِّدون ، والمَرينيُّون ، الذيـــن في اواخر عهدهم خرج العرب نهائيـًّا من الاندلس . وكلُّ هؤلاء تركوا آثـــارا متشابهة في الأندلس والمغـــرب معًا ، وكلُّهم شيَّدوا القلاع والحصـــون والقصبات والقصور ، وبنـــوا المساجد والاسوار ، واسّســـوا المدارس في عُدْوَتَي بحـــر الزقاق . وكثيرٌ من هذه الآثار مـــا يزال قائما الى اليوم على الأرض المغربيّـــة والأرض الاسبانيّـــة .

واما الغناء الاندلســـي والموسيقى فما يزالان يعيشـــان كذلك في طنجة ، وفي المغرب برمّتـــه.والمغاربة يدعونه باســـمـــه الحقيقي : (الغناء الاندلسي ، في حـــين يدعوه التونسيون والليبيون باســـم آخر ، هو (المـــالوف) . والمغاربة يقيمون حفلات الغنـــاء الأندلسي باستمرار في كلّ مكان من الارض المغربيـــة ، باعتباره فنـًّا لهم فيه حِصَّة ، ولهم في بقائه نصيب ؛ فهـــو لذلك بعضٌ من التراث الشعبي المغربـــي .

— ٢ —

الربـــاط

من طنجة ننحدر ـــ مع الخريطـــة الجغرافية ، لا مـــع التاريخ ـــ جنوبا ، لنصل الى مدينة الربـــاط ، عاصمة المملكة المغربيـــة اليوم ، وجارة مدينة (ســـلا) على شاطىء الاطلنطي ، لا يفصـــل بينهما غير نهر

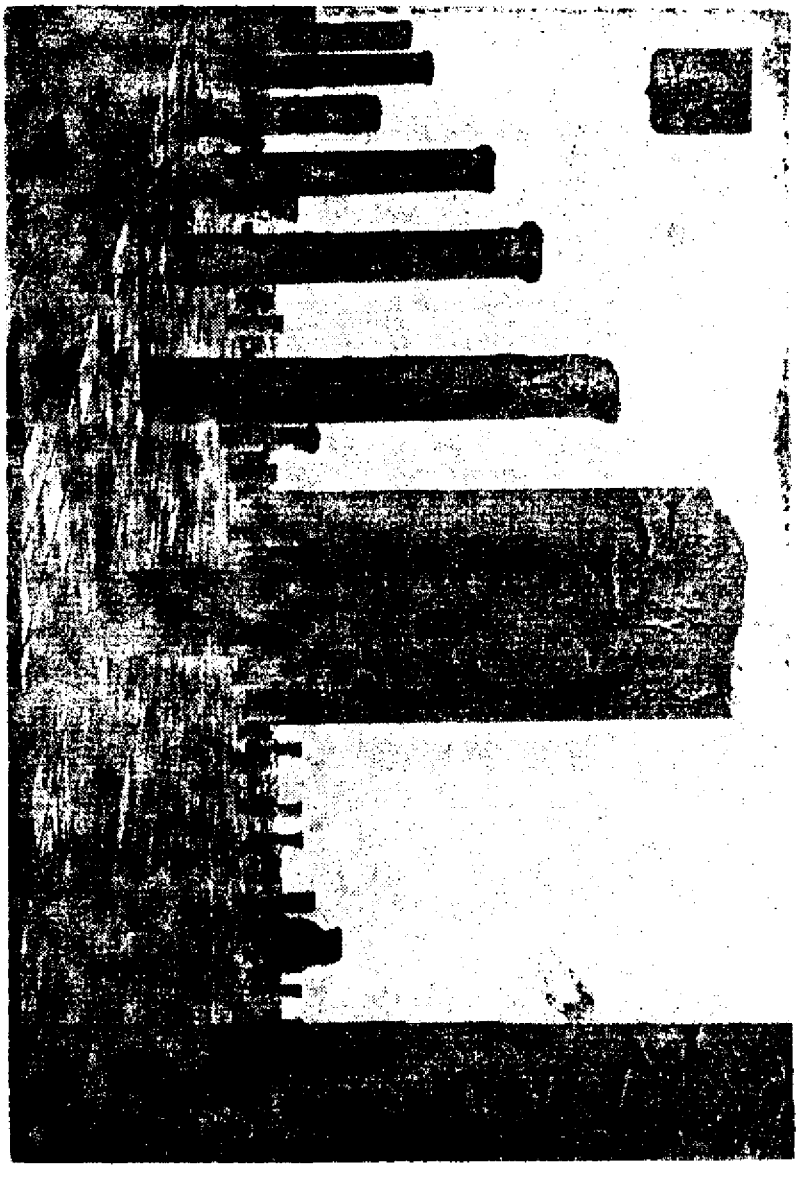

مئذنة حسن في الرباط

ضحل الميـــاه ، قليل العرض ، هو نهـــر (بورقراق) . وفي (سلا) تُوفّيَ الملك عبـــد المؤمن ، اول ملوك الموحّديـــن .

وقبل ان ابـدا الحديث على الرباط ، ارى ان اذكر ان جارتها (سـلا) مدينةٌ اندلسية،بمعنى انَّ سُكّانهـا من اصل اندلسي ، نزحوا من الاندلس فعمروها ، واقامـوا يمارسون فيها اساليب حياتهم ، وعاداتهم وتقاليدهم ، وصناعاتهـم الاندلسية ، مثلما فعـل إخوانٌ لهم خرجوا من الاندلس ، وانشـاوا مدينة تطوان ، وبعض المـدن المغربية الاخرى ؛ وكانت سـلا من قبل مدينة رومانية عريقة . فهي من المـدن المغربيـة القديمـة .

ولكنّني لـن اقفَ طويلا عند مدينة سـلا ، وقد زُرْتها وتجوّلْتُ فيها ، فلم اجـد فيها من مظاهر الفنـون الأندلسية الا القليل الذي لا يستحقّ الوقوف عنده،بالنسبة الى ما شاهَدْتُه في المـدن الاخرى الكبيرة.

واما مدينة الرباط ، او « رباط الفتح » ، كما كـان اسمها ، فتزخر بالكثير جـدًّا من مظاهر الفنون الأندلسية بشكـل يسترعي النظـر ، ويستوقف الزائـر للتأمل والاعجاب .

هذه المدينة بناهـا سلطان الموحّدين الأشهـر يعقوب المنصور ، سنة ١١٩٨ م. ٥٩٣ هـ. وانشا فيها مسجد حَسّان وصومَعَته ـ مئذنته ـ اخت مئذنة (الكُتَبيّة) فـي مراكش ، ومئذنةِ (الخيرالـدا) في اشبيلية ، بالاندلس ، وكلُّها مـن اعماله الخالدة . واما مسجد حسّان فقد هُدِم ، ولم يبق منه اليـوم غير انصافِ اعمدةٍ مزروعة فـي الارض ، يقوم بينها جزءٌ من المئذنـة يَستدعي الاشفاق حين يتذكّرُ المـرءُ ان شقيقتَيها في مراكش واشبيلية لا تـزالان قائمتين تتحدّيان الزمان . ويُقـال ان المئذنة لم تكمل ، مثلمـا كملت شقيقتاهـا .

وفي الطرف الغربي مـن المدينة تقوم (قصبـة الاوداية) ؛ وهي اخـتٌ لقصبات عديدة مثلها في الطراز ، باقيـةٍ الى اليوم في الأندلس ، تشابهها في البنـاء الداخلي ، وفي الأسوار ، وفي كـلّ شيء . وكان قد انشاها ملك الموحّديـن الأوّل عبد المؤمن بـن علي سنة ١١٥٠ م. وهي اصل مدينـة الرباط .

وفي جهة اخرى من المدينة تقوم بقايا مدينةٍ رومانية تُدعى (شيلا) ، وقد اتّخذها ملوك المَرينيّين مَقبرةً لهم ، واحاطوها باسوار عالية ، واقاموا فيها مسجدا ومئذنة . وكلّها ما تزال قائمة هناك الى اليوم .

ولم تصبح الرباط عاصمة للمغرب الاّ في عهد الاسرة العَلَويّة التي تحكم المغرب منذ زمن مولاي رشيد ، في القرن السابع عشر الميلادي — وكانت في اول عهدهم مَقَرًّا مؤقتا لملوكهم ، ثم تحوّلت الى عاصمة رسمية لهم في زمن الملك يوسف ، والد الملك محمد الخامس ، وَجَدِّ الملك الحسن الثاني . وكانت عاصمتُهم من قَبلُ هي مدينة فاس ، او مدينة مراكش . وقبل ذلك كانت مدنٌ اخرى عواصم للمغرب ، فالعاصمة هي (وليلي) مَرّة ، وحينًا مراكش ، وحينًا آخر مكناس ، او فاس . واحيانا كانت المدينةُ الواحدة تتحوّل مِرارًا الى عاصمة ، مثل مدينة فاس ، ومدينة مراكش .

ولقد تَعاقَبَتْ على المغرب كلّه حكوماتٌ متعددة : مِن عهد إدريس الأول ، حفيد الرسول ، الذي لجا الى المغرب في القرن الثامن الميلادي ، هربًا من بطش هارون الرشيد ووزيره جعفر البرمكي ، وأسّس هناك الدولة الادريسيّة ، اول مملكة مغربية اسلامية ، وقد استمر حكمها نحو قرنين من الزمن . ثم قامت الدولة الفاطمية ، فدولة المرابطين ، فالموحدين ، فالمَرينيين ، فالوَطّاسيين ، فالسعديين ، واخيرا الدولة العلوية الحاكمة الى اليوم . وعَرَفَ المغربُ الحكم الاجنبي فترة من تاريخه الحديث ، وكان حُكمًا استعماريًّا مزدوجا : فهو اسبانيّ في الشمال والغرب ، وفرنسيّ في الوسط كلّه ، الى ان جلا الاستعمار المزدوج في عهد الملك محمد الخامس ، ثم في عهد ابنه الحسن الثاني ، ملك المغرب اليوم . ولم يبقَ من المغرب في ايدي الاسبان غير مدينتي سبتة ومليليا ، في الشمال المغربي ، على ساحل البحر المتوسط ، وذلك بعد ان خرج الاسبان اخيرا من الصحراء المغربية ، على الساحل الجنوبي الغربي .

وكان المرابطون ، ومن بعدهم الموحدون ، ثم المرينيّون قد حكموا الاندلس ، وجعلوا منها جزءاً من دولة المغرب . وفي اواخر العهد المرينيّ وبداية العهد الوطّاسي خَرَجَ العرب من الاندلس ، فكان من الطبيعيّ جدًّا ان يلجأوا الى الشمال الافريقي ، ويُنشئوا فيه مُدنًا وقرى ، كان منها في الشمال تلمسان وتطوان ، وفي الوسط مثلاً — وتلمسان اليوم من الجزائر — .

هذا من الجانب التاريخي الذي يربط بين المغرب والأندلس ، ومن حيث الآثار العديدة الباقية اليوم في مدينة الرباط ، ممّا له اشباهٌ كثيرة في الاندلس .

امّا الطراز الاندلسي في البناء والزخرفة ، فان في الرباط منه الكثير ممّا يُدهش النظر ويُبهج النفس . وانت حين تمثل الى مئذنة حسّان ، تجد الى جانبها ، وعند طَرَف الأعمدة الباقية من جامع حسّان ، بناءً من افخم الابنية وابهاها ، هو ضريح الملك محمد الخامس ، والى جانبه مسجد محمد الخامس كذلك . والبنايان آيتان من آيات الصناعة الاندلسية الحيّة المتطورة في المغرب ؛ وادعاهما الى الدهشة والانبهار بجمال صناعته الاندلسية هو الضريح ذو الطابقين ، بقُبَّته العالية المذهبة ، وجدرانه التي تَفَنَّنَ فيها الصُنّاع حتى لم يَبْقَ بعد فَنِّهم فنٌّ في زخارف الزِلّيج والمقربصات الرائعة . وانت تقف تحت قُبَّته ، وتحتار في تلك الصناعة العجيبة التي لم تُعرف عصورُ الاندلس لها مثيلا ، حتى في قصر الحمراء ، وقصر جَنَّة العريف ، وجامع قُرطبة ، وقصر اشبيلية — وكلُّها من عجائب الدنيا في جمال الصناعة الزخرفية والهندسية الاندلسية — .

والجديد في ضريح محمد الخامس هو إدخال الذهب في الطراز الاندلسي باشكال لم تعرفها زخارف الاندلس من قبل ، وبكثرة تَخْلب النظر ؛ وكذلك التفنّن في الأشكال الزخرفية الأخرى غير المألوفة كذلك . وتُحِسُّ وانت في داخل الضريح ، ثُمَّ في المسجد من بَعده ، بانك تودُّ لو تُطيل البقاء ، مستمتعًا بروعة الصناعة وجمال الفن .

وتستعيد في خيالك كلَّ قصور الاندلس ومساجدها ومآذنها ، فتحسُّ بعظمة الأندلسيين الذين خَلَقوا هذه الفنون المدهشة : من دِقَّة القِطَع الزلّيجية الصغيرة ، ورهافة الفن في ترصيعها ، وجمال النقوش المصنوعة منها ، ومن رهافة المقربصات الجبصية والخشبية التي خَلَقَتْها عبقريّةُ الفنان الأندلسي . ثم يأخذك العجب من بقاء هذه الصناعة العجيبة مزدهرة ، ومن تَطَوُّرها وتحديثها في مدن المغرب كلّها الى اليوم ، وحفاظ المغرب على أن تظلَّ الاندلسُ حيَّةً فيه ، لا يمحو جمالها الزمان ، بهندستها المعمارية ، وزخارفها ونقوشها ومقربصاتها ، وكذلك بموسيقاها ، وغنائها ورقصها .

وتَخْرُج من الضريح والجامع لتتجوَّل في انحاء مدينة الرباط ، فتدهشك القصور الملكية ، بزلّيجها الأخضر الجميل في السطوح ، وفي الجدران الخارجية ، وفي ظِلَلِ الحدائق الفسيحة : قصر المَشْوَر ، وقصر السلام ، والقصر القديم الذي بناه محمد بن عبد الله العلوي . وهذه القصور الملكيّة تُحَفٌ روائع من الصناعة الأندلسية الطراز ، تَفَنَّنَ فيها الصُنَّاع المغاربةُ فأبدعوا غاية الابداع .

ثُمَّ تمضي الى جامع السُنَّة ، وجامع مولاي يوسف ، وهما متقاربان في المكان ، فتقف متأمِّلاً جمال الزلّيج الاخضر الذي يُغطّي سطوحهما . وتمضي الى الداخل ، فتُدهِشُك البساطة الأنيقة في رهافة الصناعة الاندلسية — وللبساطة جمالُها ايضا متى كانت من صُنع يَدٍ فنّانةٍ بارعة — .

ولا يقتصر الطراز الأندلسي على الجوامع والقصور ، بل تَجِدُه كذلك في بعض الفنادق ، وأَخُصُّ بالذكر (فندق حسّان) ، في وسط المدينة ، وهو تحفة فنية رائعة من الداخل ، بجمال الصناعة الزخرفية الاندلسية ، التي تستريح اليها النفس ، ويستريح النظر .

— ٣ —

مـــراكش

ونمضي مع خريطة المغـــرب انحدارا الى الجنوب ، عكس مسار الى مراكش ، مدينـــة النخيل ، او المدينة الحمراء ، كما تُدعى احيانا .

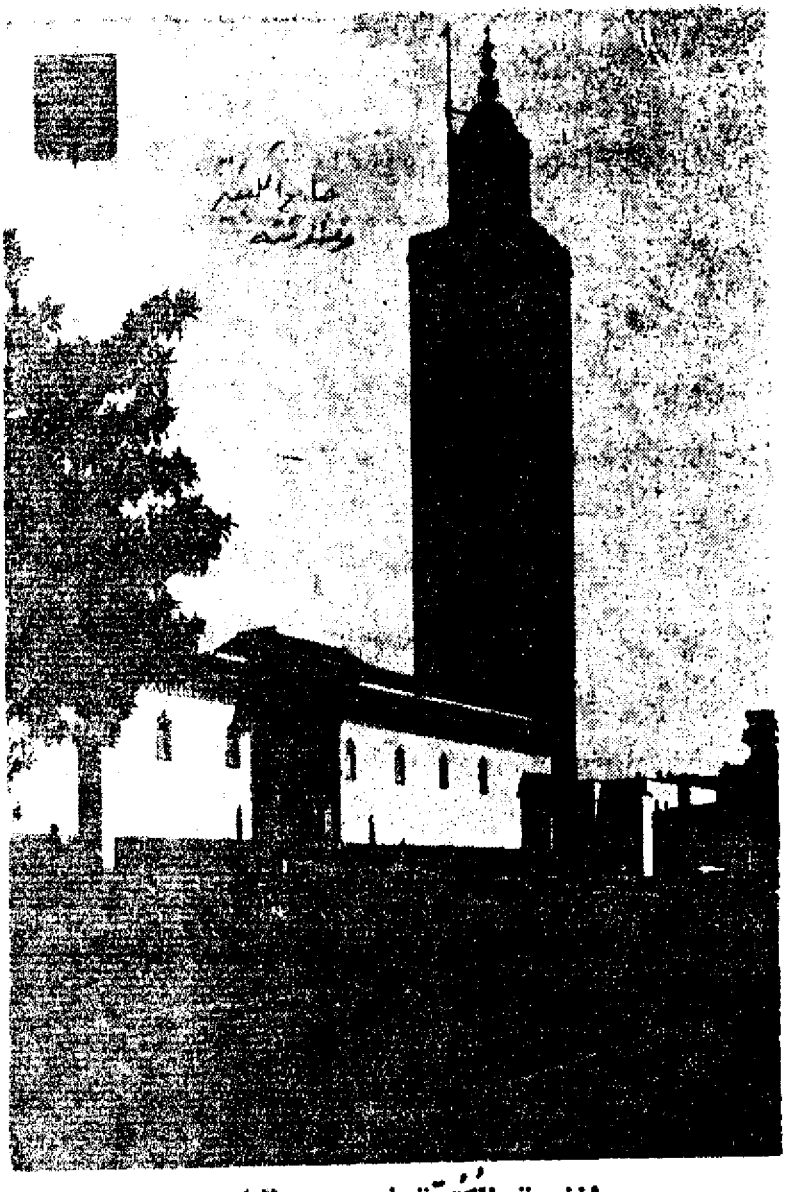

مئذنـــة الكُتبيّة فـــي مراكش

وهي تُدعَى كذلك لانَّ لـــون بيوتها الخارجي احمر ، بعكس مـــدن المغرب الأُخرى وقراه ، وكلُّهـــا تقريبًا مطليَّةٌ من الخـــارج باللون الابيض ...

ومثلها كذلك الجزائر وتونس وليبيا — وتكثر في المدينة ومن حولها اشجارُ النخيل الجميلة . وبيوتها صغيرة وقليلة الطوابق .

هذه المدينة بناها أميرُ المرابطين يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٤ هـ. ١٠٦٢ م. واتخذها عاصمةً لدولته بَدلاً من العاصمة فاس . ومنْ بَعْدُ ظلّت مراكش عاصمةً للموحّدين ، ثم كانت عاصمةً كذلك للسعديين في القرن السادس عشر للميلاد ، العاشر للهجرة . واتخذها ملوك العلويين الأولون كذلك عاصمةً لهم ، الى ان انتقلت العاصمة الى الرباط في عهد مولاي يوسف ، والد محمد الخامس ، وجَدّ الحسن الثاني . وقد تَرَكَتْ كلُّ واحدة من هذه الدول المغربية آثارا من آثارها في هذه المدينة العريقة .

وجدير بالذكر انَّ معظم اعلام الفلسفة والطبّ من الاندلسيين ، من عهد المرابطين الى اواخر عهد المرينيين خاصة ، قد انتقلوا من الاندلس اقيموا في مراكش او فاس ، في رعاية ملوك هذه الدول الثلاث وامرائها . وفي ذلك يقول عبد الله كنّون في كتابه (النبوغ المغربي) : « فأبو بكر بن باجة ، المعروف بابن الصايغ ، والفيلسوف والطبيب والموسيقي ، هو ممن أظلّتهم دولةُ المرابطين ، وخَدَمَ رجالها بعلمه وفنه ؛ وابو الوليد ابن رشد ، وابو بكر ابن طُفَيل ، وابناء زهر ، هُم ممَّن نبغوا في اعقاب عصر المرابطين ، وانتشرت معارفهم في العصر الموحّدي الذي يليه . واعلامُ الفقه والتصوف ، مثل ابن رشد الكبير ، وابي بكر ابن العربي ، وابن عربي الحاتمي ، وابن سبعين ، هم من رجال عصر المرابطين او عصر الموحّدين » (١) .

وفي مراكش ضريح بسيط متواضع ليوسف بن تاشفين ، على مقربة من جامع الكتبية ، أُقيمَ في عهد الملك محمد الخامس فقط ، في حين يقوم ضريح خصمه واسيره الشاعر الاشبيلي المعتمد بن عبّاد غير بعيد عنه ، في أغمات ، في مخامةٍ لا يعرفها ضريح ابن تاشفين .

---

(١) النبوغ المغربي ، لعبد الله كنون ، الجزء الاول ، ص ٦٦/٦٧ .

وكانت اغمات عاصمةَ المرابطين قبل ان يبني يوسف بن تاشفين مدينة مراكش .

وجدير بنا أن نشير ههنا الى أن ابن تاشفين كان قد دخل الى الاندلس بجيوشه مَرَّتين في القرن الحادي عشر الميلادي ، الخامس الهجري ؛ الأولى لصد غارات الجيوش الاسبانية عن ممالك الاندلس ، ولا سيّما عن مملكة اشبيلية التي كان يحكمها المعتمد بن عباد ، والثانية بَعْدَها بقليل ، لكي يَضُمَّ الاندلس الى المغرب ، ويبسط سلطانه على العُدْوَتين . وفي هذه المرة الثانية سيق المعتمد مكبّلاً بالقيود الى طنجة ، ومنها الى فاس ، ثم الى اغمات ، حيث عاش المعتمد في ذلّة الاسر ، وخَلَّف لزوجته وبناته مذلّةَ التشرّد والفاقة . ثم ماتت زوجته ودُفِنَت الى جانبه .

ويتألف مبنى ضريح ابن عبّاد من مدخل ، تقوم الى يساره غرفة فيها سِجِلٌّ للزائرين . ويُفضي المدخل الى باحةٍ مكشوفة ، ثم الى غرفة فيها قبرُ ابن عبّاد وقبرُ زوجته الى جانبه . وعلى الجدار الأيمن والجدار الأيسر ابياتٌ نظمها الشاعر الوزير لسان الدين ابن الخطيب حين زار قبر المعتمد . وهذه ابيات منها :

قبرَ الغريبِ ، سُقاك الرائحُ الغادي حقّاً ظَفِرتَ بأشلاءِ ابن عبّادِ
كفاك ، فارْفُقْ بما استُودِعْتَ من كَرَمٍ رَوّاكَ كلُّ قلوبِ البَرْقِ رَقّادِ
ولا تَزَلْ صلواتُ اللّهِ دائمةً على دَفينِك ، لا تُحصَى بأعدادِ

وكان ابنُ الخطيب قد رثى ابن عبّاد بابياتٍ اخرى حينما وقف على قبره ، فقال :

قد زرتُ قبرَك عن طوعٍ بأغماتِ رأيتُ ذلك من اولى المهمّاتِ
لِمْ لا ازورُك يا أندَى الملوكِ يدًا ويا سِراجَ الليالي المدلهِمّاتِ
وانتَ مَن لو تَخَطّى الدهرُ مَصْرَعَهُ الى زماني لجادتْ فيه ابياتي

لكأنما شاءت الأقدارُ ان تُقارِبَ بين ضريح السلطان الغالب ، والملك الشاعر المغلوب ، الذي كان له من دنياه السلطان والشعر

مما ، تخلّد بالشعر ، وظلّ اغرودة في فم الزمان ، وظلّ قبره محجّة الزوّار ممّن يعشقون الفنّ والشعر . وبجمع الضريحين المتقاربين ، اجتمعَ المغربُ والأندلسُ اجتماعا ابديًّا ، كان الضريحان رمزًا خالدًا له وعنوانا .

الدرسة اليوسفية في مراكش

والى جانب ذلك يجتمع المغرب والاندلس في آثار اخرى باقية في مراكش ، لعلّ اهمّها جامعُ الكتبيّة ومئذنته ـ او صومعته ـ اخت مئذنة اشبيلية الشهيرة باسم (الخيرالدا) ، ومئذنة حسّان في الرباط .

تمتاز مئذنة الكتبية ومئذنتا الخيرالدا وحسّان ، بسانُ السعود اليها ليس على سلالم ، بل في طريقٍ عريضة مُتَلَوّيَة ، تنتهي كلّ دورة منها بِشُرَفات من جميع الجوانب ، تُطِلُّ على المدينة ؛ حتى اذا بلغ الصاعدُ اعلى المئذنة ، واطلّ من شرفاتها ، انبسطت تحتَ عينيه المدينةُ كلُّها كما تنبسط راحة اليد . ويُقال إن المنصورَ قد اراد من بنائها بهذا الشكل ان يكون في وُسعه الصعودُ الى أعلى المئذنة على صَهوة جواده . هذه المِيزَةُ هي اهمُّ ما يجمع بين المآذن الثلاث . واما احجامها فمختلفات : فالخيرالدا يبلغ عُلوُّها اكثرَ من خمسة وسبعين مترا ، وعلوُّ الكتبية اثنان وستّون مترا ، ولا ادري كم كان ارتفاع مئذنة حسان ، في الرباط ، فهي الآن بَقِيَّةُ مئذنة فقط ؛ اما من حيث الشكل الخارجيّ فان الخيرالدا ، في اشبيلية ، تُحفَةٌ رائعة من آيات الفنّ المعماري ، لا تضاهيها في ذلك مئذنة الكتبية . وقد اقيمت هذه المآذن الثلاث في القرن الثاني عشر الميلادي ، السادس الهجري .

وليس في وسعي ان أُطيلَ الحديث على سائر الآثار المراكشية ، فهي كثيرة جدًّا ، وكلُّها جدير بوقفات طوال مُشْبِعات . غير انني اكتفي بذكرها فقط ، ومنها : مقابرُ السعديّين ، وفي وسطها قبرُ احمد المنصور الذهبي ، اعظم ملوك السعديين وابعدُهم شهرة ، وهي من القرن السادس عشر ، وفيها الكثير من اثر الصناعة الاندلسية . وهناك قصر (دار الهناء) وحدائقُ الأوكدال الفسيحة الواسعة الارجاء ، وقد انشاها الملك محمد بن عبد الله العَلَويّ . وفي هذه الحدائق غابات من شجر الزيتون ، وبِرْكتان كبيرتان هائلتا الاتساع ، في وسط إحداهما مكانٌ لجلوس جوقةٍ موسيقية وغنائية ؛ فهي بذلك شبيهة ببِرْكة القيروان في تونس . وهنالك ايضا قصرُ البديع ، الذي بناه احمد المنصور الذهبي ، من ملوك السعديين ، في القرن السادس عشر .

واما اقدمُ اثر مغربي يبدو فيه الطابع الاندلسي ، في المغرب كلّه ، فهو المدرسة اليوسفيّة ، في مراكش ؛ وكان قد بناها الامير عليّ بن يوسف بن تاشفين ، ودعاها باسم ابيه . وكل ما في هذه

المدرسة اندلسيّ الطراز ، سواءً في هندسة البنـــاء ، ام في المُقرْنَصات الخشبيّة السوداء ؛ وهـــذه اوّلُ مدرسة اندلسية الطـــراز شاهدتُها في حياتي ، ولم أرَ من قبـــلُ مثلها في الاندلس . امـــا المغرب فتكثر فيه

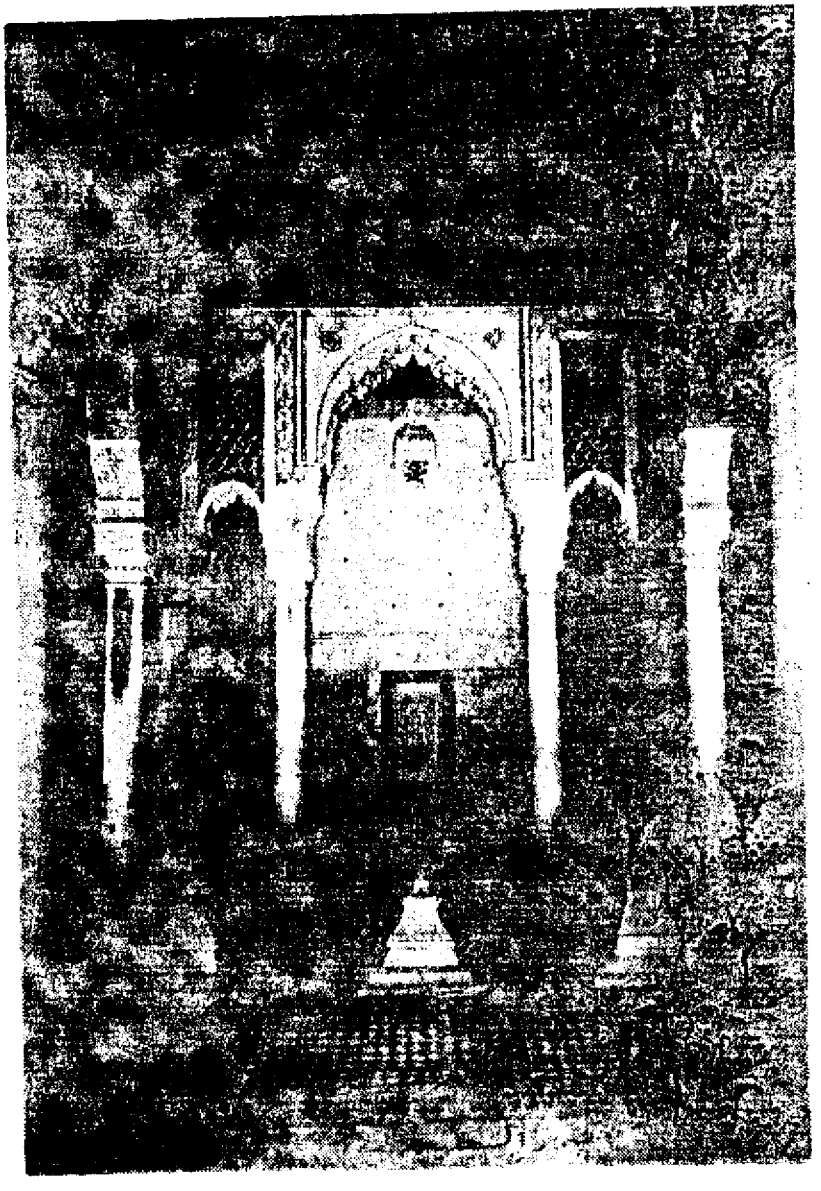

مقبـــرة السعديين فـــي مراكش

هذه المدارس ، وكثير منها مما انشاه الملك ابو عنان المَرينـــي ، وتُدعَى مدارسه كلها باســـمه : (المدرسة البوعنانيّة) . وقـــد شاهدتُ من المدارس البوعنانية ثلاثـــا : في سلا ، وفاس ، ومكناس ؛ وهـــي وسواها من المدارس القديمـــة متشابهةٌ في طرازها ، وغُرَفُ الطـــلّاب فيها اشبه

بالرنزانات ، وكلُّها تُطِـلُّ على بهو اوسط مفتوح ، وتقـوم في الطابق الثاني مـن المدرسة .

واما الزخارفُ الاندلسيَّـةُ المدهشة فيجدها الزائـر في قصر (الجلاوي باشـا)، المهجور الآن، بكلّ ما كان فيـه من اثاث ورياش فاخرة ، كلّ اقمشتها مـن الدِمَقْس الحُرّ . وكذلك فـي (قصر الباهية) ذي الحدائق الأنيقـة، بطرازها الاندلسيّ الجميل الممتـع . في هذين القصرين يعود المـرء بخياله الى الاندلس ، ويعيش في جـوّ اندلسيّ صرف ، ولكنّه جـوّ اندلسي حديث متجـدد .

— ٤ —

مدينـة فـاس

يـا فاسُ، يا جَنَّةَ الآمال باسمةً وجنّةَ المغرب الأقصى لِمـا رَحُبا

مـا زال جامِعُكِ المعمور مُفخرةً للضاد ، مَأْوَى طَوْقَ المِنَّةِ السِقَبا

(محمد المجوري)

وتنطلق من مراكش مصعّدًا فـي الأطلس الأوسط نحـو الشمال ، حتى تصلَ الى مدينتين عريقتين ، همـا مكناس وفاس . ولكليهما تاريـخ طويل مجيد من تاريـخ المغرب السياسيّ والفكـريّ ، ومِلءُ متينة بالأندلس وعرب الأندلس في القديم ، وبفنون الأندلس في العصر الحاضر .

ولستُ اقف طويلا عنـد مدينة مكناس ، بـل - اكتفي منها بذكر القليل من آثارهـا الباقية ، واهمُّهـا : قصر اسماعيل بن علي بـن الشريـف ، راس الأسرة العلوية ، ومَسجِـدُه الأندلسيّ الطراز ، ذو الألوان الجميلة الشبيهة بالـوان قصر إشبيلية ؛ وكذلـك المدرسةُ البوعنانية ؛ وهي احـدى المدارس التي انشاهـا ابو عنان ابن ابي الحسن المَرِينيّ . ويضاف اليهـا قصرُ الجامعيّ ، الاندلسيُّ الجميل .

وأمّـا مدينة فاس فيرجع تاريخ بنائها الى الملك ادريس الثاني ، ابن الامام ادريس الاول ؛ فهـو الذي وضع حجر الاسـاس للمدينة في غرّة

ربيع الاول عـــام ١٩٢ هـ. ، الرابع من يناير ٨٠٨ م. ثـم نَقَل اليها عاصمة ملكه من مدينـــة (وليلى) او (فولوبوليس) التـــي كانت عاصمة ابيـــه . وسَرعان ما توافد عليه العـــرب من إفريقية (تونس) ومن الأندلس : فجاءه خمسمئة فـــارس من افريقية ، ومئـــات من الاسر

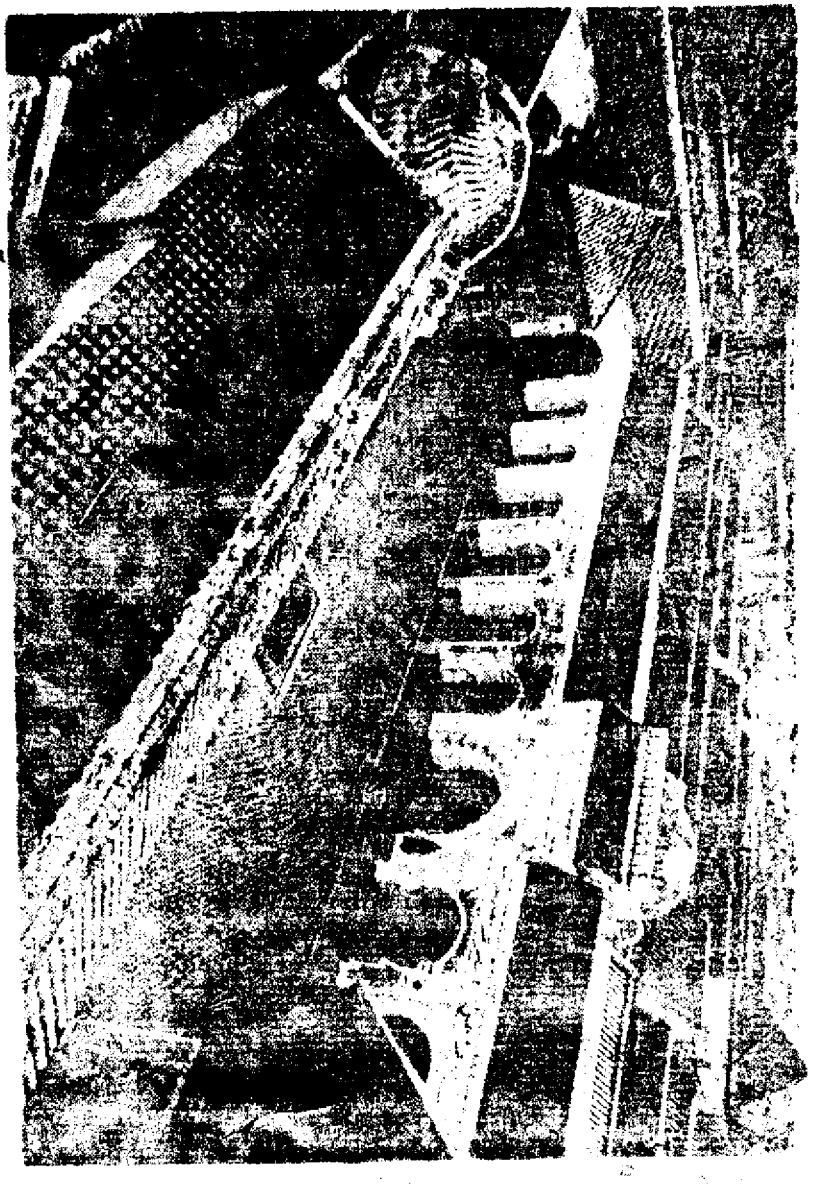

صحن جامع القرويين في فاس ويبدو سقوفه الزليجية

الأندلسية . فَجَعل المدينـــة قسمين ، دعا احدهما (عـــدوة الأندلس) — وهي القسم الشرقيّ من المدينة — وأنزَل فيـــه الأُسَر القادمة مـــن الأندلس ، ودعـــا القسم الثاني (عـــدوة القرويين) — وهي القسم الغربي — وقد اتخذ منـــه الملك ادريس مَقرًّا لـــه .

وظلت فاس عاصمة الدولة الادريسية ، التي قامت في المغرب على يد الامام ادريس الاول ، بعد هربه من المشرق خوفا من بطش الرشيد به . غير أنَّ البطش لحق به الى المغرب ، فمات مسموما في عاصمته (وليلى) على يد الشماخ ، بتدبير من هارون الرشيد ووزيره جعفر البرمكي . ولما قامت دولة المرابطين في القرن الحادي عشر الميلادي ، الخامس الهجري ، انتقلت العاصمة من فاس الى مراكش التي بناها يوسف بن تاشفين . ولما جاء المرينيّون في القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، نقلوا العاصمة من مراكش الى فاس من جديد ، واضافوا الى المدينة قسما دعوه (فاس الجديدة) واحاطوه بالأسوار ، كما كانت المدينة القديمة محاطة بالأسوار ايضا . وظلّت فاس عاصمةً للمغرب بعد ذلك في عهد الوطّاسيّين ودولتهم القصيرة العمر .

وكثُر نزوحُ الأندلسيّين الى فاس ، وقد حَملوا معهم مظاهر حضارتهم وفنونهم ، فكان لذلك اثره الكبيرُ جدًّا في النظُم المغربيّ والحضاريّ الذي عرفته فاس . وممَّن وَفدوا عليها ومارسوا علومهم وفنونهم فيها : الطبيب والعالم عبد الملك بن زهر ، والفيلسوف ابن رشد ، والوزير الشاعر لسان الدين بن الخطيب ، والفقيه جُزَيّ بن عبد الله الغرناطي ، والوزير الشاعر ابن زمرك ، وغيرهم ، وكلُّهم عملوا في المغرب في عهد المرابطين او الموحّدين او المرينيّين . والمؤلم حقًّا انَّ كلَّ واحد من هؤلاء الأعلام قد رُميَ بتهمة الالحاد والزندقة ، وبعضُهم مات حرقا ، او مات مسموما . ولا يزال قبر لسان الدين بن الخطيب بارزًا أثرُه خارج اسوار مدينة فاس .

وما تُذكَر مدينة فاس الا ذُكِرَ معها جامع القرويين ، وكان دائما في المغرب صنو الأزهر في مصر ، وفيه تَخرَّج كبارُ علماء البلاد المغربية على توالي العصور الى يومنا هذا . وقد تَحوَّلَ اليوم الى جامعة عصرية . وهذا الجامع انشأتْه في القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي ، السيدةُ فاطمة أمّ البنين الفِهْريّة ، من مهاجرات القيروان .

ولم يلبث الجامع ان اصبح جامعة ، هي اقدم جامعات العالم على الاطلاق ، واصبح مصدر إشعاع فكريّ إسلامي غَمَرَ بلدانَ المغرب والأندلس ، وتوافَدَ عليه العلماءُ وطُلاّب العلم من كل صوب . وبجامع القرويين صارت فاس عاصمةَ المغرب العلميّة الى اليوم . وهو أول

مِيضاة جامع القرويين في فاس

جامع تقوم سيّدة مسلمة في العالم الاسلامي كلّه ؛ وكُلُّ الدول التي تعاقبت على حكم المغرب منذ ذلك الحين كانت تتبارى في دعم القرويين ، وإغداق المال عليه ، وإجراء التوسّعات التي يتطلّبها ، وتوفير العلماء له ، (والمدارس) العديدة لايواء طلاّبه وتدريسهم .

أمّـا اثر الاندلس في القرويين فنُطالعُه في كـلّ مكان من هذا الجامع العريق : ففـي المحراب نرى الطرازَ الاندلسـيّ يُزخرفه زخرفة بديعة ؛ وفي صحن الجامـع نُدهِشُنا قِطَع الزلّيج ــ او الفسيفساء الملـوَّن ــ البديعة الألوان تُغطي الأرضيّة كلّهـا ، وتزخرف الدكّات الجميلة ، والجُدران جميعُهـا . ومن فوق زلّيج الجدران والأرضيّة تتدلّى المَقْرَبصات والنقـوش الجبصيّة والخشبيّـة المدهشة ، تَفنّنَت فيها أيدي الصُنّاع الفاسيّين الذيـن اخذوها في الأصل عـن الاندلسيين ، ومضت تبدع فيهـا ما شاء لها الابداع . وعلـى طرَفَي الصحن تقوم ظُلّتان ــ سقيفتان ــ جميلتان ، تُزيّنُهمـا السقوف الخشبية البديعة في نصفها الأعلى ، والأعمِـدَةُ الرفيعة الدقيقة مـن اسفلهما ، والزلّيج الأخضر البهيج في سطوحهمـا . وعلى الجدران قِطَـعٌ صغيرة من الفسيفساء الزلّيجية البهيّـة الألوان .

وعلى مقربة من الجامع عِـدَّةُ مدارس قديمة ، اندلسيـةِ الطراز ، نذكر منها : البوعنانية ، ومدرسـة النجّارين ، والعطّارين ، والصفّارين ، وهـذه كلُّها من العهد المَرينـيّ في القرنين الثالث عشر والرابـع عشر . وهنالك ايضا مدرسـة الشَرّاطين ، وهـي من عهد الأُسرة العَلَوية . وكلُّ هذه المـدارس وسواها من المدارس القديمـة في مختلف مـدن المغرب هي من طراز المدارس التـي نشأت في الأندلس من قبل ، والتي جَعَلَت مـن الأندلس منارةَ علـم وحضارةٍ قَبْلَ ان تقوم النهضة الحديثة في اوروبـا .

وتَتَجلّى الصناعةُ الأندلسيـة في كل مكان من مدينة فاس : في المساجد ، والزوايا ، وفـي المدارس ، والأضرحة . ومن أهـمّ الزوايا في فاس زاويةُ مـولاي إدريس ، مؤسس المدينـة ؛ ويتبدّى جمالها في زلّيج سطوحها وأفاريزهـا ، وزخارف جدرانها وارضيّتهـا .

غير أن احدثَ الاعمـال الزخرفية الجميلة المتطـوّرة يُبْهِرُ الزائر في (فندق قصر الجامعـي) ، وهو فندقٌ كبير حديـث ، نِصفُه كان قصرًا قديما من القرن التاسـع عشر لأحد كبار اغنياء المغـرب يُدعى (الجامعي)

ـ وله قصور اخرى في مكناس وبعض المدن المغربيّة الاخرى ـ تم اضيفت اليه اجنحةٌ حديثة ، واستُغلّت حدائقه الفسيحة ، وَزُيِّنَ بالنقوش والزخارف الاندلسية المُحْدَثَة ، فجاء قطعةً مدهشة من جَنَّة

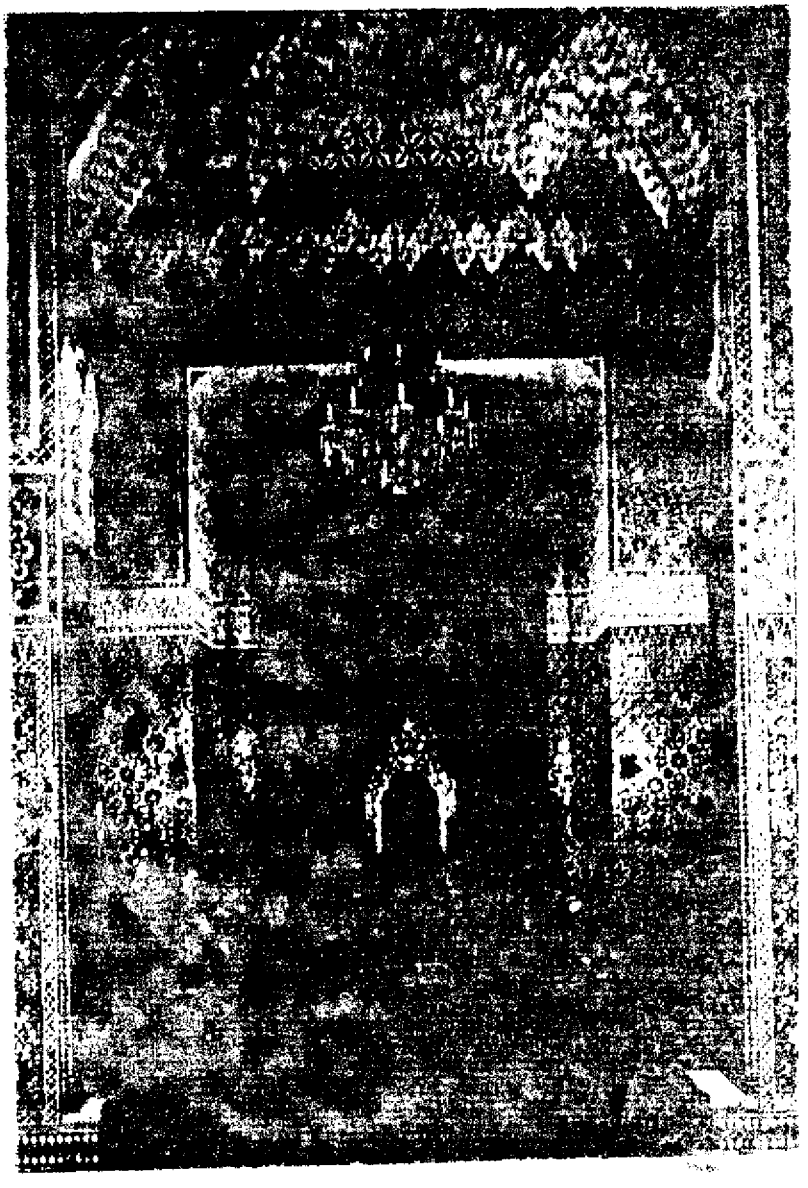

قاعة العرش في القصر الملكي في تطوان

الأندلس ، يُبزُّ مثيلها في قصور غرناطة وإشبيلية ؛ وفي فسحاته الواسعة ، حَوْلَ بِرْكة الماء الكبيرة في حدائقه ، تُقام حفلات الغناء والرقص والموسيقى الأندلسية ، فيعيش الساهرون في جوٍّ اندلسيّ خالص ، وفي مُتعةٍ للعين والنفس لذيذةٍ حالمة .

لقد امتزج تاريخُ فاس بتاريخ الأندلس في اشياء كثيرة : امتزج بالأُسَر الأندلسيّة العديدة التي نَزحت الى المدينة منذ انشائها ؛ وامتزج بفنون الهندسة العمرانية والنقش والزخرفة ؛ وامتزج في رحاب جامع القرويين ، اساتذةً وطُلاّبًا وزُوّارًا ؛ وامتزج في قصور الملوك والحُكّام بمن وفد عليهم من أعلام الأدب والشعر والفِقْه والعلم من الأندلسيين ، ولا سيما في عهد المَرينيّين وسُلطانهم الأشهر ابي عنان . وقد ذَكرنا في ما تَقدَّم اسماءَ بعض هؤلاء الأعلام .

وهناك مظاهر أخرى كثيرة من امتزاج الأندلس بمدينة فاس ، نَجِدُ بعضها في الطُرُقات الضيّقة التي تسير في وسط المتاجر المسقّفة على الجانبين، لتُبْرِزَ اعمال النَسّاجين والصاغة والصُنّاع الفاسيين البارعةَ الجميلة . ونَجِدُ بعضها كذلك في طراز الأسوار ذات النتوءات المُدَبَّبة .

والواقع ان مدينة فاس من اكثر المدن المغربية تأثّرًا بالأندلس وبفنون الأندلس ، ومن اكثرها احتضانا لفنون النقش والزخرفة والبناء الأندلسية .

— ٥ —

تَطْوان

تقوم مدينة تطوان — او المدينة البيضاء ، كما تُدْعَى ايضا — على سفح تل (دَرْسَة) الى الجنوب من سَبْتَة . ومن حَوْلها يَسقي وادي الحلو — ويُدعى ايضا وادي مَرْتَل — بساتينها الجميلة المحيطة بها . وقد بَنَى هذه المدينةَ المهاجرون الذين جاؤا من غرناطة في ايامها الاخيرة ، وعلى راسهم ابو الحسن المنظري . ثم لَحِقَ بهم غيرهم ممن اضطُرّوا الى النزوح عن الأندلس . وقد حافظت هذه الأُسَر النازحة على أسلوب حياتها الأندلسية ، بحيث يُخَيَّل اليك ، وانت تدخل الى تطوان ، انك تَدخُل الى مدينة اندلسية . والواقع انني هناك رَجَعَ بي الخيال الى مدينة (رُنْدَة) في الجنوب الأندلسي ، بشكل خاصّ ، وشَعَرْتُ بانني قد عُدتُ اليها من جديد — وكان عهدي بزيارة رُنْدَة قريبا — .

وتطوان هي العاصمة العلميَّـة في الشمال المغربي ، واللغـةُ الاجنبية التي يتكلم بهـا التطوانيون هي الاسبانيـة ، وبيوتُها تُعكِس جمال الطراز العمرانـيّ والهندسيّ الأندلسـيّ .

جوقة موسيقى اندلسية في قصر البريشة في تطوان

وقبل ان امضي في الحديـث على المدينة وطابَعِهـا الاندلسي ، أوَدّ ان أذكر انني حرصتُ هناك على زيارة مـؤرخ تطوان وشيخ علمائها ، الاستاذ الحاج محمـد داود ، صاحب (تاريـخ تطوان) ، الذي يقع في اربعة عشر مجلداً ضخمـا ، سِتَّةٌ منها مطبوعة ؛ والثمانيـة الأخرى

تنتظر الطبع ، يُضاف اليها اربعةُ مجلدات ضخمة اخرى بعنوان (عائلات تطوان) ، مِمّا يصل بتاريخ تَطوان الى ثمانية عشر مجلّداً ، اطلعني عليها الأستاذ محمد داود في تلك الزيارة .

ان روح الاندلس ما تزال تعيش مع الحاج محمد داود ، مُتحدّرة اليه من اجداده الذين نَزحوا عن غرناطة . ومَنزلُه تلمعُ فيّة من الأندلس : بتنظيمه الهندسي ، وبنقوشه وزخارفه ، ومُرشه واثاثه ، وجدرانه وسقوفه ؛ ولأوّل مرة ، وفي منزل الحاج محمد داود ، رايت طراز المخادع الاندلسية ، بالسرير العالي ، والستائر المصنوعة من الدِمَقْس الأصليّ الجميل ، ورايتُ كيف يكون (البيت الأندلسي) بفراشه على سَطيحةٍ مرتفعة عن الأرض ، وبمسانِده المستديرة الطويلة المغطّاة بقماش حريريّ زاهي الالوان . كلُّ ما في منزل الحاج محمد داود يَنقُلُك الى الأندلس ، فتعيش مع التاريخ الزاهي العزيز الذي مضى .

ومثل منزل الحاج محمد داود كذلك منازل عديدة اخرى . أهلُها كُلّهم من ابناء المهاجرين الأندلسيين ، ولم يستطيعوا التخلّي عن أسلوب الحياة الاندلسيّة . وقد زرتُ من هذه المنازل منزل عبد السلام الصَفّار ، مدير مدرسة الفضيلة للبنات ، كما زرتُ مدرستَه ايضا ، فرايتُ في كليهما ما يُبهج النفس والنظر من روعة الطراز الأندلسيّ في كلّ شيء .

حتى الساحاتُ والحدائقُ العامة في وسط المدينة ، مِن مِثْل ساحة الحسن الثاني ، وحديقة (روضة العُشّاق)، هي ايضا قِطَعٌ من جِنان الأندلس وساحاته العربيّة القديمة . وحين تَدْخُل الى حديقة (روضة العُشّاق) تجد في وسطها ظُلّةً — سقيفة — جميلة لجلوس المتنزّهين ، سَطحُها من الزِلّيج الجميل المألوف جدًّا في الأندلس والمغرب . وعلى مقربة منها بِرْكة صغيرة مستطيلة ، على جانبيها نوافيرُ رفيعة تنفث أقواسا من الماء الى وسط البركة ، فيعود بك الخيال الى (بِركة الساقية) في قصر جَنّة العريف ، في غرناطة .

وساحة الحسن الثاني في وسط المدينة ، تتوسطها ظُلَّةٌ أنيقة كذلك ، تقوم على أعمدة دقيقة ، تُذكِّر الزائر بدِقَّتها ، ولطفها ، وجمال هندستها ، وزليجها ، وزخارف أرضيتها ، بكثيرٍ مما يُعْرف في الأندلس . الأعمدة الرهيفة الجميلة بشكلٍ خاص ، تُذكِّرني بأعمدةِ جامع قرطبة ، وقصر الزهراء ، وقصر الحمراء في غرناطة .

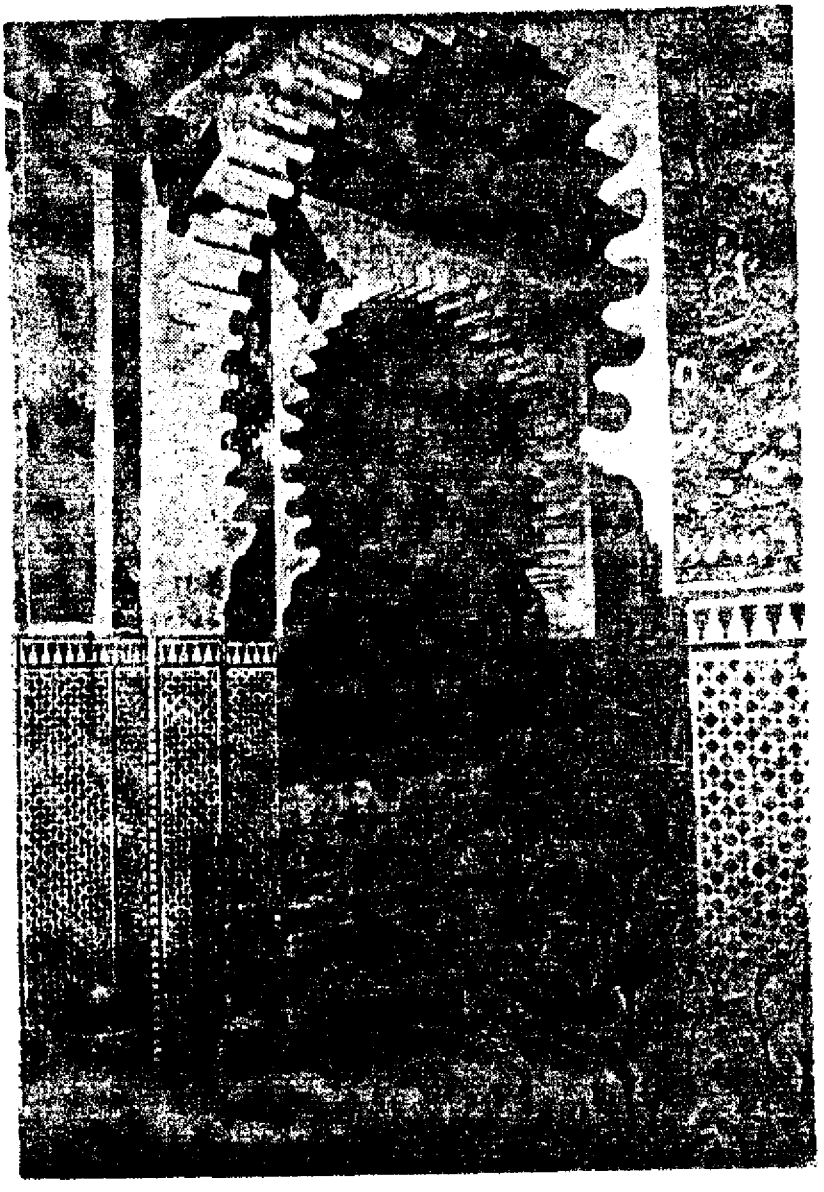

مَخْدَع أندلسيّ في المغرب

ثم تنتقل من الساحة الى القصر الملكي المجاور لها ، وهناك يتجلى الفنّ المعماريّ المنقول عن الأندلس ، والزخارف والنقوش

والمقربصات الأندلسية . باشكال لا تَشْبع العينُ من تاملها ، ولا النفس من الاستمتاع بسحرها الدائم . وهذا الجمال هو بعضُ الفنّ البارع المدهش الذي يَتنافس فيه الصُنّاع التطوانيون والصُنّاع الفاسيّون بشكل خاص ، ويحاول كلٌّ منهم ان يَتفوّق فيه على زميله .

هذا القصر الملكي بُني سنة ١٦٠٠ م. ، القرن العاشر الهجري ، بناه القائد احمد الريفي ، خليفة الملك سليمان العَلَوي في الشمال المغربي ، ثم أُدخِلَت عليه مع تعاقُب الأجيال ترميماتٌ واصلاحات عديدة ، نَجِدُ تواريخها مَدوَّنة على جانب باب القاعة الكبرى ، في الطابق العُلْوي ، وأما الهندسة الأصليّة فلم يطرأ عليها اي تغيير . وقد عَلِمْتُ من وكيل القصر الذي رافقني في جولتي هناك ان الصناعة الجِبْصيّة في القصر ، بِنقوشها المُقَرْبَصة الجميلة الأنيقة ، هي صناعةٌ فاسيّة ، واما الزليج الصغير البديع الالوان فمزيجٌ من صناعة تطوان وصناعة فاس ، وأما المقربصات الخشبيّة وكلُّ النقوش الخشبيّة فصناعةٌ تطوانية . والفرقُ بين صناعة تطوان وصناعة فاس في اعمال الزليج الصغيرة — كما قال لي وكيل القصر — هو انَّ الصُنّاع الفاسيّين يَصنعون الشكلَ الكامل قِطعةً واحدة ويشوونه في النار ، واما التطوانيون فيُقَطِّعونه قِطَعاً صغيرة ثم يَشوونها ، وبعد ذلك يُلصقونها على الجدار قطعة قطعة . وكان الصانع التطواني الأول الذي صَنَع نقوش القصر يدعى (المعلم احمد البوري) .

وتَنْتَقل من القصر الملكيّ في طريق ضَيِّقة نازلة مُتَدَرِّجة — هي طريقٌ اندلسيّة صِرْف — لِتَصِل الى قصرٍ آخر عظيمٍ الفخامة في مارازه الأندلسيّ . ذلك هو (قصر البريشة) ؛ وهو جناحان كبيران ، عاليا السقوف ، احَدُهما مخصَّص لِبَيع المصنوعات الجلديّة والمنسوجات المغربيّة المشهورة في جمالها ، والثاني سياحي : تَدْخُل من الباب فَتُفاجَأ بمنظرٍ قد لا تَقَع عليه العينُ في ايّ مكان آخر : بَهْوٌ مربّع فسيحُ الجوانب ، وفي وسطه بِرْكة ماء صغيرة جميلة ، يَنْبُعُ الماء من نافورة فيها ؛ ومِن حول البركة جوقةُ رجال ونساء بملابس اندلسيّة

مزركشة ، وفي أيديهم آلاتُ طرب اندلسية . وما إن يُحِسّوا بِوَقْع خُطاك عند البـاب حتى يأخذوا في العزف والغنـاء ، وتَرقُص في وسطهم الراقصات الجميلات ، وكلّ ذلك بفـن اندلسي جميل أخّاذ . وعلـى جوانب البَهْـو العريض مقاعدُ منخفضةٌ لجلوس الـزوّار والسُيّاح للاستمتاع بالرقص والغنـاء وبالموسيقى الأندلسيـة .

هـذا القصرُ أقامَهُ سنةَ ١٨٩٧ الحاج عبـد الكريم البريشة ، وكان سفيرًا ووزيرا وثريًّـا كبيرا ، تَولّى مناصبَ رفيعـةً في تطوان وفاس والبيضاء في عهـد الملك الحسن الأول والملك عبـد العزيز ؛ ويُقال إنه بنى قصرًا آخـر مِثْله كذلك ، وجَعَل القصرين لِبِنْتَيـه . وهذا القصر متعةٌ للعين والنفس ، بمـا فيه من جمال النقوش والزخارف الأندلسيـة .

والجديرُ بالذكر أنّ في تطـوان وغيرها من مـدن المغرب مدارس خاصة ، يدعونها (دُور الصناعة) تُدَرَّسُ فيها فنـون النقش والمقربصات والترصيع الأندلسية ، لتَظَلَّ حيَّـةً متطوِّرة باستمرار . وقـد دَخَلْتُ دار الصناعة في تطـوان ، وتجوَّلتُ في ارجائهـا ، فأدهشتني الصناعات الأندلسية الجميلة التـي يصنعها المتدرِّبون هناك ، حتى اذا مـا وَصَلتُ الى القاعة الأندلسيّـة في الطابق العُلْوي ، وَقَفْتُ ذاهـلا أمام الجمال الباهر المتجلّي في الجـدران والسقف ، وفي قِطَـع الأثاث الخشبية البديعـة الصنـع .

إنّ كلّ شيء في تطـوان ، حتى مداخل البيوت ، يوحـي اليك بانك في قِطْعةٍ مـن الأندلس العربيّة في ازهى عصورهـا .

* * *

وأنتهي الآن الى الختام من هذه الجولـة السريعة ، لأقول إنّ ما قدّمْته في هـذه الدراسة الموجَزة ليس سـوى خُلاصةٍ للانطباعات التي عُدْتُ بها من جَوْلتي في مُـدن المغرب . ولكنّ الواقع الـذي شاهدتُه ، وعِشْتُه ثلاثة اسابيع هنـاك ، يَظَلُّ اكبر من الكلمـات ، وهو جديرٌ بمزيد من التفاصيـل ، وجديرٌ كذلك بمزيد من الصُـوَر ، لِتُقَرِّبَ الوصف مـن الحقيقـة .

لقد زُرْتُ الأندلس مَرَّتين قَبْلَ زيارة المغرب : كانت الأولى سنة ١٩٦٧ ، والثانية سنة ١٩٧٤ . وكانت الزيارتان للدراسة الفاحصة المتأنّية ، لا لِمُجَرَّد السياحة والنزهة . وقد امتلأتُ نفسي بما شاهدتُ هناك من روائع آثار الحضارة العربية الإسلامية الباقية الى اليوم .

وحين زُرتُ المغرب عام ١٩٧٤ — بعد زيارتي الثانية للأندلس مباشرة — احسستُ بأن هذه الزيارة كانت ضروريّةً لكي تُكْمِل بها دراستي للأندلس : ذلك لأنَّ بين البلدين ، الى جانب التاريخ الطويل المشترك ، حضارةً مشتركة باقية ، ولأنَّ المغرب اليوم امتدادٌ رائع للأندلس ، وتاريخِهِ ، وحضارتِهِ ، وفنونِهِ .